النقد بين المثالية والدينامية

د. محمد مفتاح
(الرباط)

نظن أن الوقت قد حان للناقد العربي أن يقف ممحصاً، ولكن بموضوعية وتجرد، لكل ما يرد عليه من أنواع المقاربات النقدية الأجنبية، وأن يبتعد عن التقليد الأعمى بغية التكاثر بالمصطلحات، وقصداً للتطبيق الفج. لذلك فإن الناقد العربي ملزم بأن يخضع تلك المقاربات إلى التحليل الابستمولوجي والتأريخي، ومطلوب منه أن يمارس على واضعيها وممارسيها ما يدعى بعلم اجتماعيات المعرفة. إذ ليس من المنطقي والمعقول أن يقبل الناقد العربي كل ما يفد عليه، ويعتبره علماً مطلقاً لا يأتيه الباطل، مع أنه من وضع أناس مشروطين بظروف معيشية ومعتقدية. كما نظن أن الوقت قد حان للناقد العربي ـ أيضاً ـ أن يقف الموقف نفسه من مخلفات الاسلاف في البلاغة وفي النقد وفي غيرهما.

الناقد العربي التائق إلى بناء نقد عربي أصيل ومتقدم ومنافس ملزم بأن يقوم بعملية غربلة للمنجزات الأجنبية، ولمخلفات التراث العربي، إذ بدون عملية الغربلة تلك، فإنه يبقى ـ بلا شك ـ أسيراً للجهتين.

مداخلتنا هذه ـ نظن ـ تسير في هذا الطريق الممحص، وتتوخى تلك الأهداف. ولذلك فإنها ستشير إلى الأسس الميتافيزيقية لبعض النظريات اللسانية والسيميائية المؤثرة في النقد الأدبي، وستومىء إلى تأثير الفلسفات المثالية الحديثة فيها. وتبعاً لذلك ستبين محدوديتها. وقد أدى بنا الاقتناع بتلك المحدودية إلى تبني منهاجية جدلية تؤلف بين الذات المكونة من آليات بشرية مشتركة وبين خصوصية المجتمعات والثقافات. وتحقيقاً لهذه الجدلية أعدنا صياغة مفاهيم بيانية انسانية قديمة مثل الاستعارة والمجاز المرسل والكناية، ومنحناها أسماء جديدة مثل التشعب والمماثلة والترابط والتفارق التوسيع قدراتها الاجرائية، وقد قفّينا على آثار ذلك كله بتطبيقات برهنة على المقترحات المقدمة وترسيخاً لها.

الاحادية:

١ ـ الأسس الميتافيزيقية:

ليس من السهل تتبع كل التيارات اللسانية والسيميائية التي تشغل الساحة الثقافية ـ عالمياً ـ في الوقت الراهن، كما أنه من الصعوبة بمكان القيام بتشخيص دقيق لخلفياتها الابستمولوجية لما بينها من تداخل وتقاطع، ومع ذلك، يمكن ارجاعها إلى ثلاثة تيارات أساسية هي: البنيوية الأوروبية، والدلائلية «البرسية» والتوليدية «التشومشكاوية» الامريكيتان[1].

البنيوية الأوروبية

وخصوصاً البنيوية الفرنسية، تبنت النموذج «السوسوري» القائم على ثنائية الدليل: الدال/ المدلول، وعلى مفهوم التوالد الذاتي المحكوم بقواعد المنغلق على نفسه كما تعكسه لعبة الشطرنج.

لقد دفعت البنيوية الأوروبية بهذه الثنائية إلى أقصاها بجعلها مبدأ محدداً لبنية الذهن الانساني ولآليات اشتغاله، وبرفضها قبول احالة النص إلى مرجع خارجي. هكذا يجد القارىء شعار «ليس هناك شيء خارج النص» متجلياً في الانتروبولوجيا وفي السرديات وفي السيميائيات لدى كل من «ليفي شتـــراوس» و«تـودوروف» و«بـــارث» و«إيكـو» و«كريماص» وغيرهم.

البنيوية الأوروبية، أو ما هو مؤثر منها، تنطلق من إبستمولوجية مثالية تأخذ بثنائية الدليل، وبمفهوم استقلال اللغة، وبانغلاق النص. أي أن اللغة تولد اللغة، والنص يتوالد من النص، كما تتوالد نقلات الشطرنج وتتناسل.

الدلائلية «البرسية»

أشد تعقيداً من البنيوية الأوروبية[٢] إذ هي مزيج من الافلاطونية الحديثة والرواقية والاسكولائية (المدرسية) والكانتية ومنطق العلاقات والذرائعية. ومعنى هذا أنها تؤلف بين المثالية والواقعية. ولكن الأسس الميتافيزيقية ـ فيما يخيل الينا ـ هي المهيمنة على مسار تفكير «برس».

نستعرض ثلاثيات «برس» توضيحاً لهذا الادعاء، وهي:

الممثل: ـ العلامة الكيفية/ العلامة الفردة/ العلامة القانونية.

الموضوع: ـ الايقون/ المؤشر/ الرمز.

المؤول: ـ الحملي/ القضوي/ البرهاني.

يمكن أن تقابل هذه الثلاثيات ب:

الممثل ـ الطبيعة/ المخلوقات/ الاعراف والعادات واللغات (الله)

الموضوع ـ صفات الطبيعة/ ارتباط المخلوقات/ الدليل على وجود العلة الأولى (صفات الله) بالخالق (الله)

االمسؤول ـ الدليل الفطري/ الخطابي/ الدليل البرهاني.

ليست هذه الثلاثيات ـ نظن ـ إلا انعكاساً للميتافزيقا اليونانية واللاتينية. وتأكيداً، لهذا القول، نقتبس قول احد المختصين العالميين، وهو «أمبرتو ايكو»، يقول: «تقدم العصور الوسيطة المنتمية إلى الافلاطونية الحديثة اطاراً ميتافيزيقياً لهذه النزعة التأويلية، ففي كون هو عبارة عن سلسلة من الفيض، ابتداء من الأحد اللامعروف واللامسمى إلى أقصى تشعبات المادة، فإن كل كائن يشتغل بمثابة مجاز مرسل واستعارة من ذلك الأحد»[٣].

ثلاثيات «برس» الدلائلية «انعكاس» للمناقشات اللاهوتية الوسيطية التي كانت مهتمة بتفسير نشأة الكون وتطوره وعلائقه. وقد أغفل الدلائليون المعاصرون هذا الأصل القديم. ولكنهم غارقون فيه من قنن رؤوسهم إلى خمص أقدامهم مثلما يوضح ذلك مفهوم السيرورة الدلائلية اللامنتهية «Semiosis» الذي نجده مطبقاً بكل دقة عند «امبرتو إيكو»، و«رفاطير».

توليدية «تشومسكي» تأسست ـ إبستمولوجيا ـ على البيولوجيا والرياضيات والاعلاميات، ومع هذا، فإنها تقلل من أهمية وظيفة اللغوية التواصلية، وتبرز وظائف غير اصيلة في الفعل اللغوي من مثل الحديث للخداع أو مواصلة حبله. وقد يتساءل المرء عن سبب قرار «تشومسكي» هذا الذي يجعله مناقضاً لمنطلقه البيولوجي. بيد أن عقلانية «تشومسكي» وخلفيته الرياضية المجردة وآليات التوليد الاعلامية جعلته يسقط قوانين العلوم المجردة على اللغة الطبيعية المؤسسة على التواصل والتأثير.

أهم المنطلقات اللسانية والسيميائية الحديثة ذات أصول ميتافيزيقية أو علوم مجردة. وإذا لم يتفطن الناقد العربي إلى ذلك فإنه لن يكون على بينة من امره فيحطب ويخبط ويخلط. ومع أن المهمة ليست سهلة، إذ يحتاج إلى الالمام بتطور الفلسفات وتأريخها، فإنه لا مفر له من بذل الجهد.

٢ ـ محدودية النماذج المثالية:

إن أهم التيارات اللسانية والسيميائية التي تعرضنا لها مشبعة ـ في مجملها ـ بخلفيات مثالية أو عقلانية مجردة،

ولكن ليس هذا كل ما يميزها، وإنما نجد فيها تقصيراً آخر واضحاً في الميدان الذي يهمنا، وهو النص الشعري بيد أنه يجب التمييز ـ في هذه النازلة ـ بين اللسانيات والسيميائيات.

من المعروف أن اللسانيات ـ في بداية امرها ـ اهتمت بالجملة فقط، ولكنها بعد فترة اعارت الاهتمام إلى النص فنقلت اجراءات تحليل الجملة إلى الخطاب مثلما نجد في أعمال كثير من الباحثين. وقد انطلقت أعمالهم من «الافتراض أن المناهج التحليلية المستعملة في اللسانيات يمكن أن تطبق بكيفية مباشرة في كليتها على النص الأدبي». وهذا الافتراض «يغفل الاختلافات العميقة بين النص واللغة أو بين المكتوب والخطاب»[٤].

وقد طورت هذه المقاربات اللسانية نفسها وأسمت أعمالها «أنحاء النص «Text Grammars»»، ولكنها ارتكبت نفس الأخطاء السابقة، إذ استبدلت بمنهاجيات لسانية منهاجيات لسانيات أخرى. ويمكن ضرب المثل لها بدراسات «هالداي ورقية حسن» «Holliday and Hasan» و«فان ديك». «Van Dijk».

اشهر منجزات «هالداي وحسن» في هذا المجال هو كتابهما «الالتحام في اللغة الانجليزية» «Cohesion in English»[٥]. ومن الطبيعي أننا لن نقدم تحليلاً شاملاً لمحتوى الكتاب، إذ ليس مقصودنا تقديم معلومات، وإنما هدفنا طرح إشكال علاقة «أنحاء النص» بتحليل الخطاب الشعري. وكما هو واضح من العنوان أن المفهوم الاساسي هو الالتحام. ويتفرغ عنه مفهوم تكويني وهو الاتساق Consistance. والنص المتسق هو ما يربط بين أجزائه أدوات لغوية وتركيبية، وهي:

الاحالة

مثل الضمائر وأسماء الاشارة وأل التعريفية وهذا النوع من الاحالة يسمى إحالة نصية، ولكن هناك احالة مقامية. والاحالة النصية تكون أما قبلية أو بعدية.

الاستبدال

وهو عملية تتم داخل النص بتعويض عنصر بعنصر آخر.

المعجم: ـ ويتجلى في تكرار الكلمات وتضامها.

الوصل: ـ ويظهر في الطريقة التي يترابط بها لاحق اللام بسابقه. والأمثلة التي أتى بها المؤلفان تشمل واو العطف وأدوات الاستثناء والتعليل والتمثيل والتفسير.

نكتفي بهذا التقديم لكتاب «الالتحام في اللغة الانجليزية» لنولي وجهتنا شطر أعمال «فان ديك». لهذا المؤلف كتابان، أحدهما بعنوان «بعض مظاهر انحاء النص «Some Aspect of text»»[٥]، Grammars وثانيهما هو «النص والسياق» «Text and Context» والمؤلف في كتابيه يهدف إلى بناء نظرية لسانية كافية تستطيع تحليل كثير من المظاهر النصية التي عجزت لسانيات الجملية أمامها. ويمكن تلخيص مشروعه في الخطاطة التالية:

النص				
الدلالة		التداول		
الترابط	الاتساق	البنيات الكلية	السياق والأفعال الكلامية	تداوليات النص	الأفعال الكلامية الكلية.

يظهر من هذه الخطاطة أن «فان ديك» تجاوز التحليل اللساني الصرف إلى الشكف عن البنيات العميقة الثاوية وراء كل خطاب وكل نص. وهو بعمله هذا يلتقي مع مؤلفات أخرى مثل ««تحليل الخطاب» لـ «براون ويول» «Discourse Analysis»، و«لسانيات النص» Text «Linguistics لـ «دوبيوكراند ودرسلر».

كتب «أنحاء النص» و«تحليل الخطاب»[٧] و«لسانيات النص»[٨] تعتمد جميعها في وصفها وفي صياغة قواعدها على الأمثلة المصنوعة، أو على اللغة الشعبية المغرقة في الخصوصية. وقلما تلجأ إلى أمثلة طبيعية عادية أو أدبية. بيد أنها لم تجعل موضعاً لتحرياتها النص الشعري الحقيقي.

إن هذا الموقف ليس خاصاً بالاتجاهات اللسانية على مختلف مشاربها، وإنما نجده في سيميائيات «كريماص»، فقد اهتم هو وأتباعه بالنص الشعري بعض الاهتمام في أعمالهم الصادرة في السبعينات، أو في بعض ما يصدر عنهم الآن، ولكنهم لم يذهبوا بعيداً في اكتشاف الخصائص المميزة للنص الشعري. ما عدا جماعة «مو» «Mu» في

كتابها «بلاغة الشعر»[٩]. وأما أتباع دلائلية «برس»، فإن بعضهم اعتنى بالنص الشعري مثل «امبرتو إيكو» و«رفاطير» خصوصاً. ولعل هذه الدلائلية أكثر نجاعة في تحليل بعض الأنواع الشعرية الحديثة والمعاصرة من أية نظرية أخرى.

يتبين مما تقدم أن المقاربات اللسانية مفيدة جداً في ضبط التحام النص واتساقه إذا كان علمياً أو فلسفياً أو سياسياً أو شعرياً قديماً... على أنها تعجم عن اثبات الالتحام والاتساق في كثير من النصوص الشعرية الحديثة والمعاصرة التي تثور على الالتحام والاتساق. ولذا، فلا مفر من الالتجاء إلى السيميائيات الأوروبية وإلى دلائلية «برس» لسد الثغرات بعد أن تغربل ابستمولوجيا وتطعم بمفاهيم جديدة ظاهراتية ودينامية.

الجدلية:

١ ـ ظاهراتية قراءة النص الشعري:

يخيل الينا أن قراءة النص الشعري يجب أن تؤلف بين الذاتي والموضوعي، بين الظاهر والعميق. وقد يفهم من هذا اننا نتناقض. ذلك أن المناهج اللسانية والسيميائية المشار اليها قبل أن تتحكم فيها الظاهراتية: أسس البنيوية الفرنسية ظاهراتية ودلائلية «برس» ظاهراتية. ولكننا نعني هنا ظاهراتية القراءة كما هي لدى أصحاب نظرية التلقي الالمـانيين[١٠] وغيرهم. كمـا يعني البعد الفلسفي للظاهراتية[١١]. ومسلماتها هي:

الصعود من الظواهر إلى قيود الدينامية التوليدية.
الشكل يحدد المضون[١٢].

وتطبيقاً لهذين المبدأين وغيرهما، نجد محللي النصوص يهتمون بكل مظاهره: شكل الحروف، وعلامات الترقيم، وتوزيع الفقر، وعلاقة البياض بالسودا والفضاء النصي والفضاء التصويري[١٣]... ويستعينون بمناهج تحليلية ملائمة مثل نظرية الأشكال (الجيشطالت) وعلم الخرائط وعلم الطباعة.

وما ينبغي أن نلح عليه هو أن هذه الوجهة من البحث فعالة في دراسة بعض نماذج الشعر الحديث والمعاصر والأشعار المشجرة والمختمة القديمة. كما أن الاستفادة ممكنة منها في تحليل النصوص الشعرية العادية.

ظاهراتية القراءة (فينومينولوجيا) خطوة أولى، إذن، في سبيل ادراك دينامية النص.

٢ ـ دينامية النص:

أبنّا ببعض التفصيل في عمل سابق[١٤] الدينامية التي تحكم النص وما ينبغي التذكير به هنا هو أن النص ينبني على: «البساطة البنيوية والتعقيد المنظم، أو السكون والدينامية، أو التوازن واللاتوازن أو الانفتاح والانغلاق أو الاستقرار والتكون التشكلي»[١٥].

يتمظهر النص، إذن، بهذه التقابلات المتكاملة التي يختزلها بعض الباحثين في الدينامية إلى ما يدعى بالتوازي والتراكيب، أو بلغة بلاغية إلى ما يسمى بالاستعارة والكناية والمجاز المرسل معاً. وسنطلق عليهما نحن اسم الترابط والمماثلة.

الترابط:

نعثر على هذا المفهوم في كل الكتب اللسانية المهتمة بتحليل النص مثل أعمال «هالداي» و«فان ديك» وغيرهما. ولكننا سنوسعه ليشمل ـ بالاضافة إلى ذلك ـ ما يدعى في ميدان علم النفس المعرفي «Cognitive Psychology» والذكاء الاصطناعي «Artificial Intillegence» والأطر «Frames» والمدونات «Scripts» والسناريوهات «Scenarios» والخطاطات Schemata[١٦]. وبدون تفصيل، فإن هذه المفاهيم تعتمد على ما يدعى بالمعرفة الخلفية. ويتولد أفق انتظار عن تلك المعرفة. وأفق الانتظار ـ بناء على هذا ـ تحكمه الأوليات التالية: الترابط والتوالي الخطي والتعالق فإذا لم تلب مطالب افق الانتظار، فإن المتلقي، حينئذ، ملزم بأن يبني الثغرات الموجودة في النص اعتماداً على ما هو مخزن في علبته السوداء. ومن بين الآليات التي يستخدمها في عملية بنائه الاستدلال بأنواعه المختلفة، والفرض الاستكشافي: «Abduction».

لتوضيح هذا يمكن تقديم المثال التالي:

«مهرجان المربد» مدونة. «Scripts». ولذلك، فإن من

له معرفة خلفية يتوقع انعقاده في مدينة بغداد في زمن معين. ويحضره شعراء يلقون اشعارهم وباحثون يناقشون قضايا الابداع والنقد كما يقومون بزيارات مختلفة: قبر الشهيد والجبهة.. يمكن أن تدعى هذه العناصر بالضرورية، ولكن هناك عناصر أخرى اختيارية مثل لباس المشاركين وألوانهم وكيفية حديثهم... وهب أن شخصاً كان قد اعتاد الحضور في المهرجان ولكنه تغيب فحكى له شخص آخر حضر المهرجان ولكنه اكتفى بذكر الذهاب إلى الجبهة. ومع ذلك فإن الشخص الذي تغيب يمكن أن ينبني مدونة بناء على معرفته الخلفية.

ذلك هو الترابط العام، ولكن هناك ترابطاً خاصاً تحكمه قوانين الكناية والمجاز المرسل والتداعي (علاقة الجزء بالكل والحال بالمحل والمسبب بالسبب) ولكن هذا الترابط الخاص سنوسعه ليشمل العلائق بين المواد المعجمية والجمل وأبيات القصيدة أو أسطرها... أي أن هناك سببية كل كلمة تدعو أخرى، وكل جملة تتسبب فيما بعدها مما يؤدي إلى سلسلة متصلة الحلقات من مكونات النص وعناصره. ولكن هذه الوجهة من النظر مبنية على ما يمكن أن ندعوه بالتحليل الدقيق «Digital» وأما إذا كان التحليل عاماً «Analog» فإن الناقد ينظر إلى القصيدة في شموليتها كشكل مبين «Gestatt» وخصوصاً إذا كانت شعراً مجسماً أو خطياً... ولكن التحليلين متكاملان.

هذا التكامل نفسه هو ما نجده بين الترابط والمماثلة باعتبار أن العمليتين تتولدان عما يمكن أن يدعى بلغة الفيزيائيين التشعب «Bifurcation». وقد استعاره منظرو العوالم الممكنة وعرفوه بأنه: «حالة اشياء معبر عنها بمجموعة قضايا»، وكل قضية اما أن تعبر عن «ب» وأما أن تعبر عن ليس «ب» وهذا التحديد صحيح من حيث تعلقه بمدار النص «Topic»، إذ لا يمكن أن يتناول النص موضوعاً واحداً بالنفي والاثبات في وقت واحد، فالمؤلف مطالب باختيار احد الطريقين ليسير فيه حتى يصل إلى هدفه. ولكن المسير في خط مستقيم يشوش عليه النص فيفرغ قضايا جانبية تغني الموضوع المتحدث عنه.

إن العلاقة التي تربط بين مدار الحديث وتشعباته هي المماثلة «Similarity». ولننظر إلى هذه العلاقة باعتبار طرفين وليكونا ما يكونان: مشبه ومشبه به، أو بيت وبيت، أو قصيدة وقصيدة. وعلاقات المماثلة هذه قد تكون: **علاقة ثنائية تناظرية**، وتكون هذه العلاقة حينما يمكن للطرفين أن يتبادلا الموقعين لأنهما يمتلكان نفس الصفات. وهذا ما دعاه البلاغيون القدماء بالتشابه، وسماه علماء الكلام والمناطقة المحدثون بالمماثلة الكلية:

علاقة ثنائية لا تناظرية

هذه العلاقة تتطلب ترجيح أحد الطرفين على الآخر ولكن الترجيح ينبني على المسلمة المنطلق منها، فإذا انطلقنا من المعقد إلى البسيط، بناء على مفهوم التفارق «Diffrentiation»، فإن ما يتبعه يكون تخصيصاً له. وأما إذا سلمنا بأن النص تكون بدايته من البنية البسيطة إلى التعقيد المنظم، فإن ما يتلو الجملة يكون هو الأعم والأشمل. ولكن هذه الخطية ليست موجودة في النص دائماً، وخصوصاً إذا كان من جنس النصوص الادبية. فقد يكون هناك تبادل للمواقع بين الخاص والعام على مستوى تحقق النص. وهذا ما تفطن اليه علماء الأصول العرب فذكروا بأن الخاص قد يأتي متأخراً عن العام وقد يسبقه. ولكن النص على المستوى المجرد ينطلق من المعقد إلى البسيط، أي من الغرض العام الذي يكون خلفية معرفية مشتركة بين مجموعة من الناس منتمين إلى الثقافة نفسها وعالمين بأعرافها، إلى تحققه في نص معين من قبل شاعر معين في سياق خاص(٢٠).

ما يجب التأكيد عليه أن نمو النص لا يقتضي تساوي الحدين: الكلمتين أو الجملتين أو البيتين أو المقطعين... من جميع الجهات، لأنه إذا حصل التساوي بين الطرفين من جميع الجهات فإن النص لا ينمو، ويصير عبارة عن تحصيل حاصل.

لهذا، فإن علاقة اللاتناظر هي التي تهيمن في أي نص، لأنها رابطة بين طرفين بطريق المماثلة الجزئية.

العلاقة الثنائية المتعدية

إذا كان النص محكوماً بعلاقة المماثلة الجزئية

اللامتناظرة، فإنه محكوم بعلاقة التعدية أيضاً. وهذا يعني أن كل جملة تتولد عن سابقتها مما يكون علاقة أبوة وأمومة وبنوة فترث اللاحقة من السابقة بعض الصفات.

إذن، علاقة التعدية بدهية إذا ما أخذنا بمفاهيم نمو النص والتحامه واتساقه وانسجامه.

التفارق:

إذا ما رفضنا وجود علاقة مماثلة كلية، فإننا نرفض ما يلي:

العلاقة الثنائية التناقضية:

إذا كانت هناك قضيتان، أحداهما مثبتة والأخرى سالبة فإنهما لا يجتمعان ولا يمكن لنص أن ينمو ويتسق وينسجم على أساسهما لأنه سيكون محتوياً على التدافع. وإذا ما وجد هذا التدافع، فإن هناك آليات ووسائل تستخدم لازالته.

إذا ما سلمنا بوجود علاقة مماثلة جزئية فإننا نقبل وجود تفارق جزئي.

العلاقة الثنائية اللاتناقضية:

هكذا، إذا وجدنا هوية ونقيضها، فإن احدى الهويتين معطاة والأخرى مبنية. ويوظف مفهوم التفاعل أو شبه التضاد «Synergy» في عملية البناء ويلجأ الشاعر أو غيره إلى الجمع بين هويتين بينهما شبه تضاد لينتج تأثيراً لا يمكن أن يحصل عن احدهما وحده. ويقع هذا التوفيق سواء أكانت المماثلة الجزئية ايجابية أم مماثلة جزئية عنادية كما نجد في الدعابة والسخرية والاستهزاء والألغاز.

من كل ما تقدم نرى أن ليس هناك تفارق مطلق كما لم تكن هناك مماثلة مطلقة، وإنما هناك تفارق جزئي كما كان هناك مماثلة جزئية. المماثلة الجزئية والتفارق الجزئي جوهريان في نمو النص.

تدليل:

إذا أردنا أن نجمل ما تقدم، فإننا نقول: إن الدراسات اللسانية والسيميائية لم تعر كبير اهتمام للنص الشعري، ولكن تطعيمها بنظرية الاشكال وظاهراتية القراءة والتلقي اسهمت ـ إلى حد كبير ـ في سد تلك الثغرة. ولكن الوقوف عند هذه النظريات رجوع إلى المثالية المنتقدة أو تبنّ للوضعية الفجة. ولذلك، فإنها يجب أن لا تكون إلا خطوة أولى في سبيل اكتشاف قوانين الدينامية التي تتولد عنها الظواهر مثلما أبانت عن ذلك العلوم المعاصرة من فيزياء وبيولوجيا وبعض اتجاهات العلوم الاجتماعية.

قوانين الدينامية المؤسسة على الصراع والتقابل وراء الشاعر ونصه، والمخاطب وتأويله، واعتباراً أننا قدمنا نبذاً عنها في عمل سابق، فإننا اكتفينا بابراز آليتين متكاملتين: الترابط والمماثلة، أو الأفقية والعمودية. ومصاحبة للأقوال بالأعمال، فإننا اخترنا نصاً شعرياً أندلسياً لتوضيح أشغال الآليتين.

الترابط:

سنسلك نفس الطريق الذي سرنا فيه من قبل لتوضيح هذا المفهوم وتوظيفه، ولذلك سنأخذه بمعناه العام أي المدونات. وما يقدم المدونة هو:

«قال: وقد استرجعت بلنسية من يد العدو».

يعني هذا أن بلنسية كانت محتلة وان المسلمين حرروها فطردوا العدو منها بعد قتال مرير بينهم وبين الكافرين بجيوش مكونة من المحاربين وأنواع الفرسان، وبأدوات الحرب المعروفة من سيوف ورماح ودروع، فسالت دماء وقتل أناس... وقد أهلك المسلمون خلقاً كثيراً من الأعداء وانتصروا عليهم.

القصيدة تتحدث، إذن، عن مدونة مختزنة في ذاكرة الشاعر والمتلقي. وقد وافقت أفق الانتظار فلم يأت فيها ما يتناقض مع المعرفة الخلفية أو يشوش عليها وإنما كان هناك توال خطي وسببية لأحداث ضرورية مشتركة بين كل القائلين في الغرض. نعم هناك «اختلاف» في كيفية التعبير عن تلك الأحداث، وذكر لبعض التفاصيل أو طي لها.

الترابط عامل منظم، إذن، لعناصر النص وأجزائه المجردة كما هو منظم لأجزائه المحسوسة. وإذ ان المجال

لا يتسع لتبيان هذا التنظيم من خلال القصيدة جميعها، فإننا نكتفي بالبيتين الأولين:

«سح» و«غمام» و«انهملا»[٢٣] مترابطة دلالياً فيما بينهما. كما هي مترابطة أيضاً بـ «فاء السببية»، ولكن كلمة «النصر» تثير اشكالاً. بيد أنه يزول بمجرد ما نتذكر «المدونة» إذ تؤشر على النصر.

«قام» و«عمود» و«اعتدلا» بينهما مقومان مشتركان وهما: «العمودية» و«الاعتدال»، كما أن «فاء السببية» و«واو العطف» معروفة وظيفتهما. تبقى كلمة «الدين» غير واضحة العلاقة بما قبلها وبما بعدها. إذ أحدثت هي و«النصر» فوضى وخصاماً بين تلك العناصر المتضامنة. ولكن المدونة تكسب «النصر» مكاناً بين الأسرة، وتبوىء «الدين» محلاً بين الأخوة.

ما قلناه في الترابط بين وحدات هذا البيت يقال في البيت الثاني. إذ لا يمكن لأحد أن يجادل في الوشائج الموجودة بين «لاح» و«نجم السعد» و«هوى النجم»، و«كر» و«عصر»، و«مضى»، و«خلا». ومن السهل جداً إثبات العلاقة بين «السعد» و«النصر» بما سبقهما وبما يتلوهما.

ترابط موجود بين معجم البيتين، ولكنه حاصل أيضاً بما يدعوه بعض الشعريين بـ «التعادل»[٢١]: وهو:

سح = قام، غمام النصر = عمود الدين، فانهملا = فاعتدلا لاح للسعد

نجم = كر للنصر عصر، قد خوى = قد مضى، فهوى = فخلا.

التفارق:

قد يثار سؤال، بعد هذه الأمثلة التي قدّمناها، وهو: ألا يكون في هذا تكرار وتحصيل حاصل؟ نعم هناك تكرار ولكن ليس هناك تحصيل حاصل، إذ ليس موجوداً بالفعل ولا بالقوة وان تراءى تعبيرياً. ذلك أن آلية أساسية تضبط نمو النص من العام إلى الخاص، لكنه نمو يتم ببطء عن طريق جزئيات صغيرة «Seuils» ويعطي اسم «التفارق» لهذه العملية.

اختيارنا للبيتين الأولين لضرب المثل بهما ليس عشوائياً وإنما هو مبني على أنهما النواة أو البنية المجردة التي ستتوالد منها باقي معاني النص، هي عموم يتلوه خصوص، أو أنهما بنية بسيطة تتعقد في انتظام. وسواء أكان منطلقنا رياضياً أم بيولوجيا تطورياً، فإن نمو النص واقع لا يرتفع، وان نموه يؤلف بين العملتين معاً.

المماثلة:

أساس هذا النمو هو تشعب المفاهيم أو «الفوضى» التي تطرأ عليها فيحصل الانتقال من مفهوم إلى مفهوم. التشعب حجر الزاوية في التعقيد أو في التبسيط. ولنعط أمثلة من النص للتشعب، وسنقسمه إلى قسمين: عام وخاص.

التشعب العام:

- المجرد/ المحسوس: الفتح/ الانسان؛ النصر/ السحاب؛ الدين/ الخيمة السماء/ السعد؛ النصر/ الجيش.
- الانسان/ غيره: الانسان/ الحيوان؛ المرأة/ الأرض؛ الانسان/ القنا والظبي.
- الانسان/ الانسان: الذكر/ المرأة؛ الكبر/ الصغر.
- المعنويات/ المعنويات: الكفر/ الاسلام؛ النصر/ الهزيمة.
- الطبيعي/ المصنوع: البحر/ اللامة.
- المقدس/ المدنس: الدين/ الجنس.

التشعب الخاص:

الزمان: الآن، قبل.

غمام: النصر، السماء.

عمود: الخيمة، الدين.

وليتابع من أراد مثل هذه الكيفية في التحليل في باقي أبيات القصيدة. وأما نحن فنختار بعض التشعبات التي ليست واضحة لنلقي عليها بعض الضوء.

موضوعة الجنس:

بلنسية امرأة:

بلنسية امرأة دنّست من فعل الكفار، ولكنها تطهرت بماء

سيوف المسلمين، والبيت الثاني عشر صريح في التعبير عن موضوعة الجنس هذه. ولكن هذا التعبير الصريح مُهّد اليه بقرائن مختلفة، فبلنسية كانت محجوبة ومحجبة، وكلمتا «الثرى» و«الوغى» مؤنثتان، أي امرأة. هذه المرأة لها خد مورد وجفن كحل، كل صفات المرأة الذاتية والعرضية منصوص عليها أو مشار إليها.

وقد الحقت بلنسية بالمرأة كما يمكن أن تلحق المرأة بالأرض فيقال: المرأة بلنسية. وتقع صياغة التشبية باعتبار السعة والضيق أو الشامل والأشمل ومهما يكن الأمر، فإن الحدين مرتبطان في الموروث الثقافي العربي: «الانسان يموت على أرضه أو عرضه» ولذلك عبر الشاعر بوعي منه أو بدون وعي عن الموضوعتين معاً: (الأرض والمرأة) لأنهما متلازمتان.

موضوعة السخرية:

جرياً على عادة الشعراء العرب، فإن ابن خفاجة ذكر قوة العدو ووصف شجاعته وأسلحته وصبره ومصابرته. ولكن هذه الأوصاف جميعها ليست إلا سنداً للسخرية من القوم الكافرين، ورفعاً لأقدار المسلمين. وكشفاً عن هذه السخرية سنبني تشعباً جديداً، هو:

علوج الروم هم عجول الروم:

سادرة أو سائبة لأن ركن الكفر أو الحظيرة قد تهدم، ولذلك، فإنها تدافع عن نفسها بالهروب: ولكن سيوف المسلمين تظفر بها وتقتلها. كل منها معرض للقتل حتى يترك جيفة نهباً للطيور والحشرات.

موضوعة الهول:

هذه الموضوعة معطاة بحكم الغرض المتحدث فيه. إذ من مكوناته الدماء والقتل والاشلاء. ولكن مقصودنا أن نتجاوز هذا الهول الجزئي إلى بناء الهول الكلي.

المعركة هي يوم القيامة

فالبيت «في موقف» هو مؤول لنصوص تراثية من القرآن والحديث والآثار والأخبار... (يوم تذهل كل مرضعة عما ارضعت...) (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه...) هو يوم هول أو يوم فزع أكبر انتصر فيه المسلمون وخذل فيه الكافرون.

ركزت على ثلاثة تشعبات أساسية وأهملت التشعبات الأخرى التي هي أوضح من أن يلح عليها. ذلك أن التشعبات الواضحة يقدمها النص بواسطة الاشتراك أو الترادف أو التضاد أو التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل والتورية، أو الالغاز. وأما التشعبات المبنية فتحتاج إلى مؤشرات لغوية أو إلى الالتجاء إلى ما يمكن تسميته بجناس القلب والتصحيف «Amagrammes»، أو إلى السيرورة الدلالية «Semiosis وهذا ما فعلناه في موضوعة الجنس والسخرية والهول.

الانتمائية:

لا يقدم النص كل معناه وكل دلالته على سواد صفحته، وإذا كان هذا صحيحاً، فإن مقولة: «ليس هناك شيء خارج النص» تصبح موضوع تعديل كما أن مفهوم السيرورة الدلائلية اللامنتهية يصير موضع تكميل وتهذيب. لذلك، فإن ظاهراتية اللسانيات والسيميائيات المعاصرة وواقعيتها «المثالية» ووضعيتها وتجريبيتها ليست إلا خطوة أولى، وإلا أدراكاً مباشراً يبقى قليل للجدوى إذا لم يبحث لـه عن القوانين المولدة.

البحث عن القوانين منطلقة الدينامية القائمة على الاستقرار/ اللااستقرار الثابت/ التشكل التكوني... وتوضيحاً لهذه الصيرورة وظفنا ثلاثة مفاهيم أساسية، هي التـرابط (الاستقـرار)، والتشعب والتفـارق (اللاستقرار، أي أن الترابط وسيلة تنظيم، والتشعب والتفارق أداتا نمو وعاملا «فوضى».

بين هذه المفاهيم، إذن، تكامل؛ إذا كان التشعب وسيلة «للفوضى»، فإن المماثلة وسيلة لضمان الاتساق والانسجام بين أجزاء الكون والنص، كما أن الترابط عامل انسجام أيضاً، وكلاهما مع التفارق عوامل نمو وخصوصية ومتى كان نمّو، فإن هناك علاقة ثنائية لا تناظرية ومتعددة بين مكونات النص. أي ليس هناك تحصيل حاصل مطلق في النص كما أنه ليس هناك

تناقض مطلق فيه، وإنما هناك تفارق بين مكونات النص الداخلية والخارجية.

إن هذه القوانين الدينامية تجعل النص جزءاً من ظواهر الكون المختلفة، فما يحكمها يحكمه، ولكن كل ظاهرة لها خصوصيتها. وهذا ما توخيناه بتبنينا لظاهراتية القراءة والتلقي.

هذا الأفق التكاملي هو ما تستشرفه دراسات النظرية السيميائية للنصوص ونظرية الذكاء الاصطناعي ونظرية الكوارث. وقد وظفنا منها: التوازي والتراكب والمدونات والتشعب. ولا يكاد يجادل أحد في أن هذه النظريات مفيدة، ولكن فائدتها القصوى هي الاستيحاء منها لاعادة بناء التراث العربي النقدي والبلاغي ولصياغة نقد عربي حديث وأصيل. وما فعلناه في هذه الخطاطة يدخل ضمن هذا السياق. فلم نذكر الاستعارة وأقسامها ولم نسرد الكناية والمجاز المرسل وأنواعهما، ولكنا عبرنا عنها بالتشعب والمماثلة والترابط للخروج بها من سجن الجزئي إلى رحابة الكلي، أي من الجملة أو الجمل إلى النص جميعه.

محاولتنا، إذن، لا تهدف إلى تقديم معلومات أو إلى تحليل نص وإنما تتوخى تقديم مشروع نقدي بناء ليناقش ويغنى.

هوامش:

(١) انظر:
- Nikhil Bhattacharya (1979), Signs and Experience: Steps Towards
- Floyed Merrell (1985), A Semiotic Theory of Texts. Berlin.

(٢) انظر تفصيل هذا في:
- Gerard Deledalle, (1979), Teorie et Pratique du signe. introduction a la semiotique de Charles S. Peirce. Payot Paris.

كما يمكن النظر في هذا مجلة «Semiotica»، ففيها كثير من الأبحاث حول هذا الاتجاه الدلائلي.

(٣) انظر:
- Umberto Eco, (1985), Semiotics and Philosophy of Language. P. 103. Macmillan.

وترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية بعنوان:

Semiotique et philosophie du Langage (1988), P. 162. P. U. F. Paris.

(٤) انظر: Floued Mzrrell

(٥) أنظر:
- Halliday, M.A.K, and R. Hasan (1979), Cohesion in English Longman. London.

(٦) أنظر:
- Van Dijk, T.A. (1977), Text and Context. Longman. London.
- Van Dijk, T. A. (1984), Texte. in Dictionnaire des Litterateurs Fran/ais. Bordas. Paris.

كما يستحسن الرجوع إلى عمل الأستاذ محمد خطابي «مظاهر انسجام الخطاب» وهو أطروحة أعده ا تحت اشرافنا.

(٧) أنظر:
- Brown, G. and Yule (1983), Discourse Analysis. C.U.P. London.

(٨) انظر:
- De Beagrand, R. and Wolfgang Dressler (1981). Introduction to Text Linguistics. Longman. London.

(٩) انظر:
- Groupe Mu, (1977), La rhetorique de la poesie.

(١٠) أنظر:
- Poetio 16 (1987).

ففي هذا العدد تفصيل عن نظرية التلقي في المانية وأميريكا وغيرهما.

(١١) انظر:
- Jean Petito — Cocorda, (1986), Morphogenèse du sens. P.U.F. Paris.

(١٢) المرجع السابق، ص ٧٩ و٨١.

(١٣) أعد الأستاذ محمد الماكري أطروحة بعنوان: «الاشتغال الفضائي في الشعر العربي - نماذج من التجربة المغربية» تحت اشرافنا تتناول هذه القضايا بتفضيل.

(١٤) محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وانجاز) ١٩٨٧.

(١٥) أنظر: - Floyed Merrell. Of. Cit. P. 9.

(١٦) أنظر في هذا الشأن كثيراً من الدراسات، نشير إلى بعضها:
- Samet, J. and Schank R. (1984) Coherence and connectivity. in Linguistic and Philosophy. VOL. 7. No. 1. PP. 57 - 82.
- Lea T.A. dams and Patricia E. Worden (1986). Script Development and Memory Organisation in Preschool and Elementary School. in Discourse Processes. 9, 149 - 166.

(١٧) لهذا المفهوم عدة تسميات: ثراع الخطاطات والتشاكل. والسنين المتصارع.
- Michael J. Reddy, The Conduit Metaphor - Case of Frame Conflict in our Language about Language, PP. 284 - 324. in Metaphor and Thought (1986) ed. A. Ortory.

(١٨) انظر الترجمة الفرنسية:
- Umberto Eco (1985), Lectorin Fabula. Crass. Paris. PP. 160 - 230 (149).

(١٩) فالتفصيل يتلوه التكثيف. وقد أشرنا إلى هذا في كتابنا «دينامية النص، وخصوصاً في فصل «انسجام النص القرآني».

(٢٠) أنظر الكتاب السابق والفصل المذكور.

(٢١) نظرية جاكسون مثلاً.

(٢٢) تحديد التفارق: تعني هذه المادة وما اشتق منها Differentiation الانقسام إلى مقولات أو عناصر تحتوي فيما بينها فروقاً. كما أن هناك مصطلحاً آخر وهو Dédifferentiation عملية تطور من المعقد إلى البسيط.

٢٣ - بعض أبيات القصيدة:

١ - الآن سح غمام النصر فانهملا
وقام صغو عمود الدين فاعتدلا
٢ - ولاح للسعد نجم قد خوى فهوى
وكر للنصر عصر قد مضى فخلا
٣ - وبات يطلع وبات يطلع نقع الجيش معتكراً
بحيث يطلع وجه الفتح مقتبلاً
٩ - فغادر الطعن أجفان الجراح به
رمداً وصير أطراف القنا مقلا
١٠ - وأشرق الدم في خد الثرى خجلاً
وأظلم النقع في جفن الوغى كحلا
١١ - وأقشع الكفر قسراً عن بلنسية
فانجاب عنها حجاب كان منسدلاً
١٢ - وطهر السيف منها بلدة جنبا
لم يجزها غير ماء السيف مغتسلاً
١٣ - كأنني بعلوج الروج سادرة،
وقد تضعضع ركن الكفر فاستفلا
١٤ - تظل تدرأ بالاسلام عن دمها
وهبة السيف فيها تسبق العذلا
١٥ - في موقف يذهل الخل الصفي به
عن الخليل وينسى العاشق الغزلا

انظر باقي القصيدة في:
ديوان ابن خفاجة، دار صادر - بيروت.

يصدر قريبا

عن دار الآداب

- الساعة العاشرة والنصف ذات مساء صيفيّ — رواية لمارغريت دوراس
ترجمة رنا ادريس
- البرج - عالم العناكب — رواية لكولن ولسن
ترجمة فكري بكر
- ما بعد الحياة — تأليف كولن ولسن
ترجمة محمد جلال عباس
- تحت الشبكة — رواية لايريس مردوخ
ترجمة فؤاد كامل
- قصة مدينة الحجر — رواية لاسماعيل كاداريه
ترجمة د. عفيف دمشقية
- من أعاد دورتين؟ — رواية لاسماعيل كاداريه
ترجمة انطوان أبو زيد
- التاريخ السري لأمير موساشي — رواية لجونيشيرو تانيزاكي
ترجمة كامل يوسف حسين